



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

التفكير النقدي السقراطي، كآلية لعلاج المشكلات الاجتماعية المعاصرة

المصطفى مرتبط

باحث مغربي

20
25

www.mominoun.com

◆ بحث محكم
◆ قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية
◆ 2025-03-17

التفكير النقدي السقراطي، كآلية
لعلاج المشكلات الاجتماعية المعاصرة

ملخص

لم ينفصل السؤال الفلسفي عن الحياة الاجتماعية للكائن البشري، ولم يغفل أبدا قضايا ومشاكل الناس وشأنهم العام، فقد رسخ سقراط التفكير الفلسفي الناقد الذي ينطلق من السؤال لينظر في العلل والأسباب، في الصحة والمرض، حيث لم يكتف بطرح السؤال الفلسفي الصحيح، بل عمل على توسيع دائرة التفكير إلى حد مساعدة طالب الاستشارة الفلسفية في استخلاص حلول لمشكلاته وقضاياها، سواء في علاقته بذاته أو بالآخر أو بالمجتمع ككل. بهذا المعنى، اتخذت الفلسفة النقدية السقراطية الصبغة العلاجية، وتقديم الاستشارة التفاعلية الرصينة، الهادفة إلى النهوض بالذات الإنسانية، وإعادة بنائها على أساس الأخلاق والتطهير الروحي والاستشفاء الفكري، فالحجة التي لا تخفف ألما هي حجة بلا قيمة.

فالهدف من هذه الورقة البحثية هو إعادة إثارة السؤال الفلسفي الذي اعتمده سقراط، والمتأسس على التفكير الناقد التوليدي، لكن بمنظور جديد، نقارب من خلاله علاج المشكلات الاجتماعية المعاصرة، وتبحث الورقة في سؤال عريض مفاده: كيف يمكن للتفكير النقدي السقراطي أن يكون آلية لعلاج المشكلات والقضايا الاجتماعية المعاصرة الجماعية والفردية؟ هذا في وقت ساد فيه الاعتقاد لدى العامة من الناس أن الفلسفة ليست سوى ترفا عقلياً وجدليات دياكتيكية عديمة الفائدة.

مقدمة

منذ ظهور التفكير الفلسفي والفلسفة إلى يومنا هذا، لم تكن أبدا منفصلة عن الحياة الاجتماعية للكائن البشري. وفي تناولها للمباحث الفلسفية الكبرى لم تغفل أبدا قضايا ومشاكل الناس وشأنهم العام، وقد تجلى هذا بوضوح لدى محبي الحكمة اليونان، كأبيقور وسقراط وأفلاطون والرواقيين والأبيقوريين، كما تجلى في الفكر الحديث عند ديكارت وسبينوزا وكانط وجون لوك، ... ونجد هذا الأسلوب الذي يتناول الشأن الاجتماعي بمنظور فلسفي، كذلك، حتى في الفكر المعاصر لدى لودفيج فون فيتغنشتاين ولوي كافيل ومن سار في فلهم، بعد أن تم إحياء فكرة «الفلسفة كأسلوب حياة».

لقد اتخذت الفلسفة ومعها التفكير الفلسفي عدة اتجاهات؛ قسم اهتم منذ البدايات الأولى لهذا العلم بمسلك ينظر في العلل والأسباب للوجود والكون، وقسم يبحث في الأسقام ومسبباتها، وفي الصحة والمرض وشروط علاجها، وهناك قسم وسع من مجال التفكير النقدي المنصب على البحث المقتصر على طرح السؤال الفلسفي، إلى التفكير المفضي إلى مساعدة السائل في استخلاص أجوبة للمعضلات الاجتماعية والنفسية للمجموعات البشرية وكذا الأشخاص.

أما اليوم، فقد صوبت الفلسفة بأغلب اتجاهاتها نظرتها نحو ترميم الذات الإنسانية العليقة، وإعادة بنائها على أساس الأخلاق والتطهير الروحي والاستشفاء البدني، ولعل عبارة أبيقور الشهير التي يعلن فيها صراحة عن هذا المسلك، لازالت صامدة تتمتع بقوة الوجود، وتلخص أهمية التدخل العلاجي بالفلسفة، حيث كان يردد دوما «أن الحجة التي لا تخفف ألما هي حجة بلا قيمة».

وإذا كانت الفلسفة تسعى إلى الخير والفضيلة والصالح العام، فإنها تعلن، الآن، تكييف آليات تدخلها بإعادة بناء التفكير الناقد القائم على التدخل العلاجي في القضايا المعاصرة، على أن تقدم لهذا الإنسان المحاصر بالمشكلات النفسية والاجتماعية حولا تطبيقية عملية، ووصفات علاجية، حيث إن مظاهر الملل والكآبة والتهيه الاجتماعي وال فشل الشخصي قد ارتفع منسوبها واستشرت، بالرغم من كل ما يحوزه هذا الإنسان من تكنولوجيا متطورة ووسائل الراحة والرفاه.

يبدو أن الاعتقاد السائد -اليوم- لدى عامة الناس، يرى أن الفلسفة لا تتعدى كونها ترفا عقليا، وجدليات دياكتيكية عديمة الفائدة، حتى وإن كانت لازالت عند القلة من الأنتلجينسيا والفلاسفة قوة فاعلة ومحركة في المجتمع، فهي قبل أن تطرح السؤال الفلسفي الصحيح، تقدم تصورات وتمثلات للمشكلات والقضايا الكبرى، حتى تتمكن من الإفصاح لاحقا عن المنهج الذي يمكن أن يسير عليه تفكيك وتحليل هذه القضايا والمشكلات فهما وعلاجها. لكن ما هي هذه المشكلات والقضايا الكبرى التي تصدت لها الفلسفة التدخلية عبر تاريخها؟

يمكن تقديم جواب أولي يختصر أهم القضايا التي واجهت الإنسان عبر سيرورة حياته في: الله، الكون والذات الإنسانية؛ أي القضايا المرتبطة بالوعي الإنساني.

انطلاقاً من المقدمات أعلاه، جاءت هذه الورقة البحثية لتعيد إثارة تفكير فلسفي قدمه سقراط، «التفكير النقدي التوليدي»، لكن بمنظور جديد، نقارب من خلاله المشكلات الاجتماعية، ونسعى عبر تفعيله -الآن- إلى تقديم نماذج لصفات علاجية لها. فالسؤال الإشكالي الذي تتمحور حوله هذه الورقة يمكن صياغته كالتالي: كيف يمكن للتفكير النقدي السقراطي أن يكون آلية لعلاج المشكلات والقضايا الاجتماعية المعاصرة الجماعية والفردية؟ ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة من قبيل: ما الذي تقدمه الفلسفة السقراطية، عبر أعمال التفكير النقدي، كحلول لمعضلات تمس حياة الإنسان اليوم؟ كيف يمكنها تشخيص الوضعيات الاجتماعية؟ وما طبيعة الوصفات العلاجية التي تقترحها؟ وما الآليات التي تتوسل بها؟ وهل أصبح للفلسفة العلاجية مستشارين يسهرون على تقديم المشورة للمحتاجين إليها؟ وإذا كانت الفلسفة العلاجية فرعاً من فروع الفلسفة التطبيقية، فهل الأمر بلغ حد قيام مدارس وعيادات متخصصة في تقديم المشورة الفلسفية والاستشفاء بالفلسفة؟

لمقاربة السؤال الإشكالي أعلاه، كان لابد من تناوله من خلال التوزيع المحور التالي: المحور الأول يعرض لأهم المشكلات والقضايا الاجتماعية من منظور فلسفي، والثاني يتناول بتحليل التفكير الناقد كأسلوب علاج تبناه سقراط في حل المعضلات الاجتماعية، بإسقاط جديد، لاستخلاص طرائق علاجية للمشكلات والقضايا الراهنة. أما المحور الأخير، فقد ركز على مشكلات الذات الفردية وكيفية علاجها، وشروط تدخل الفلسفة العلاجية.

أولاً: المشكلات والقضايا الاجتماعية من منظور فلسفي

تعد الحكمة في جوهرها «سيرورة عملية» و«ممارسة نقدية»، فهي إجراء وسعي حثيث، وليست كسبا أو حيازة بقدر ما هي مهمة سيزيفية، تعلي من أهمية القيم والفضائل في العلاجات الفلسفية، حيث تؤدي إلى سمو الذات وازدهار القيم والغايات، على المنوال الذي رسمه لها حكماء هذه المجموعة الإنسانية من سقراط وأفلاطون إلى جيرد أشمباخ Gerd Achembach ومرورا بروبرت نوبيك Robert Nobick، على اعتبار أن الفيلسوف يسعى دائما لفهم الأشياء وعللها ومسبباتها، ومدى انعكاساتها على الواقع الاجتماعي؛ أي السعي إلى تحقيق الخير والفضيلة وتحسين جودة الحياة، وابتكار الوسائل الضرورية للوصول إلى هذه الغايات وتحقيق الحياة السعيدة.

إذا كان الحديث عن الفلسفة العلاجية للقضايا الاجتماعية لا يمكن أن يُتناول إلا من مدخل الفلسفة السوفسطائية والسقراطية (الفلسفة التطبيقية)¹، فإن الذين أحيوا الاهتمام بهذه الأخيرة خلال السبعينيات من القرن الماضي، قد فعلوا ذلك من منطلق وجود حاجات اجتماعية مستجدة وملحة جرتهم جرا إلى سلك هذا المضمار، وهو ما شدد عليه أنطوني كوهن Cohn Anthony سنة 1984، حيث يرى أن العالم اليوم في حاجة ماسة إلى فلسفة تعالج مشكلات الحياة المستجدة، التي تزيد من الضغوطات النفسية والاجتماعية؛ أي إن المجتمع في حاجة إلى فلاسفة يربطون بين آليات الفلسفة التطبيقية وانعكاسات التطور التكنولوجي السريع²، في سبيل استخلاص حجج تستند إلى الوقائع التجريبية. أما عند دفيد هيوم David Hume صاحب الإبيستيمولوجيا التطبيقية، فنجد في مؤلفه «بحث في الفهم الإنساني»، يحرص على تقديم حجج تضع في اعتبارها الوقائع التجريبية المعاصرة، والشئ نفسه نجده أيضا عند دفيد كودي David Coady عندما كتب «نظريات المؤامرة وشبكات التواصل الاجتماعي»، حيث انكب على معالجة موضوعات نابذة من صلب المجتمع.

أما فيما يتعلق بالجانب المرتبط بهوموم ومشكلات الإنسان، فقد بدأ الاهتمام بها مع محاورات سقراط، التي عالج فيها جانين اثنين: الأول أخلاقي يهتم الفرد وذاته، والثاني اجتماعي علائقي يهتم التفاعلات التي تحدث بين الأفراد؛ بمعنى أن سقراط عمل على إنزال الفلسفة من السماء إلى الأرض، من المباحث الكبرى: الله، الوجود والكون، إلى التفكير في الإنسان بصفته ذات فاعلة ومنفعلة، مؤثرة ومتأثرة. فالإنسان بهذا المعنى ووفق الفهم السقراطي يجد نفسه أمامه مشكلتين كبيرتين: الأولى أخلاقية تأتي منها معظم مشكلات الناس، والثانية علائقية ترتبط بالحياة الاجتماعية، وهي ضعيفة ومتأصلة ونابذة من المجموعة الأولى، بحيث لم تتغير منذ سقراط إلى اليوم، بالرغم من تغير أنماط الحياة وتعقد مشكلاتها.

1 الفلسفة التطبيقية هي تسمية معاصرة لفلسفة تتأسس على السؤال التوليدي، كانت موجودة قديما، مع الفلسفة السفسطائية والسقراطية.

2 David Coady, "Applied Epistemology in A Companion to Applied Philosophy", P. 51-60

بتعبير آخر، إن الفلسفة العلاجية تستهدف نوعين من العلاج: العلاج الذاتي الذي يبحث في مكونات ومضمرات الذات الإنسانية، والعلاج الموضوعي الذي يكون بمساعدة مستشار فلسفي، ويتم عن طريق تقديم الإرشاد الفلسفي، على اعتبار أن كلا العلاجين: الذاتي والموضوعي، هما نوعان من العلاج الأخلاقي، مثلاً: القضايا التي تتناولها الفلسفة اليوم، إما ذات طابع شخصي: كالكذب، والحقد، والكرهية، والغش، والسرقه، وعدم إتقان العمل، وعدم تحمل المسؤولية، وعدم الإخلاص، والخيانة، والتعاسة، والخوف من الموت والمرض...هي التي تعد أصل المشكلات الاجتماعية، وإما مجتمعية: من قبيل إيذاء الآخرين والاعتصاب والتحرش، والعنف، والقتل، وغيرها؛ بمعنى أن المشكلات الأخلاقية هي ما ينبغي أن يستهدفه الفيلسوف المعالج أولاً، لتسهيل الفلسفة إلى أداة علاج مساعدة للإنسان في حياته الاجتماعية، انطلاقاً من قدرتها على الدفع به لاستنتاج أجوبة منطقية عقلانية لمشكلاته الشخصية والأخلاقية، فالإنسان هو مقياس كل شيء كما يقول السفسطائي بروتاغوراس؛ بمعنى أن للإنسان من القدرة ما يمكنه من تغيير واقعه الاجتماعي كما يريد.

وإذا عدنا إلى أهم ما كتب في الفلسفة والتغيير الاجتماعي³، نجد أنها تتعرض لشخصيات فلسفية مهمة، كان لها أثرها في الحياة الاجتماعية، كسقراط وأفلاطون وأرسطو الذين يعتقدون أن الفلسفة ليست مجرد نشاط تربوي، وإنما نوع من العلاج النفسي الذي يخفف المعاناة وينمي الاستقامة ويصقل الشخصية ويخلق العدالة⁴. كذلك كان الأمر بالنسبة لتوما الأكويني، ورنيه ديكرت وجورج مور، الذين استهدفوا عبر مناهجهم الفلسفية إحداث تغيير في الواقع الاجتماعي.

لذا، فالفيلسوف المقصود حسب موضوع الفلسفة العلاجية هو ذلك المفكر المرتبط بالواقع، وصاحب نظرية متخصصة، قد تكون إصلاحية أو ثقافية أو اقتصادية أو تعليمية أو تربوية، ومثل هنا بجون ديوي John Dewey، وماثيو لبمان Mathew Lippan الذين حاولوا تقديم فلسفة في التربية والطفل، وأنتجوا إسهامات أغنت حقل الفلسفة: «الفلسفة للأطفال» و«الفلسفة مع الأطفال» و«التفكير في التربية»⁵.

في مقابل الفلسفة العلاجية (التي هي جزء من الفلسفة التطبيقية) يوجد عدد كبير من الفلاسفة الذين اهتموا بالشأن الاجتماعي من خارج إطار الفلسفة العلاجية، معظمهم من الفلاسفة التحليليين، الذين لديهم طموح وسعي متواصل إلى تغيير العالم نحو الأفضل. ولعل أشهر هؤلاء: برتراند راسل Bertrand Russell الذي يعدّ الفلسفة غذاء للروح، حيث لها القدرة على تحرير الإنسان من سجن العادات والتقاليد التي اعتاد عليها، وتحرر كذلك الإحساس بالدهشة، وتجعله ينتصر على الخوف. أما كارل بوبر Karl Popper في فكرة

3 يمكن الرجوع إلى: «فلسفة التغيير، أين أنت في عالم لا يكف عن التغيير؟» لصاحبه يحيى عطوة الزنط، «فلسفة التغيير، مفاهيم وقيم جديدة لعصر حديث» من تأليف أحمد حجازي. كما يمكن الاستعانة بفلسفة الحدائث في: «القول الفلسفي للحدائث» يورغن هابرماس، ترجمة فاطمة الجيوشي.

4 Monica Vilhauer, "Philosophical Counseling", a Journal for Philosophy and Interdisciplinary Research, 16, 2005, P 1-2

5 Lipman Matthew, "Thinking in Education", (Cambridge University Press 2003) p.156-161

إمكانية التكذيب، وعقم المذهب التاريخي⁹، فيرى أن الفلسفة عموماً تطرد الدوغمائية المتعجرفة. هؤلاء التحليليون وإن كانت تدفعهم رغبة نقد الإيديولوجيا الشاملة، إلا أنهم يختلفون عن الفلاسفة التطبيقيين الذين يستهدفون الكشف عن الوقائع والعلل التي تؤثرت عالمنا المعاصر.

أما من يخول له دور الفيلسوف المعالج لهذه القضايا والمشكلات الاجتماعية، فهو ذلك الذي راكم خبرة طويلة في مجال التحاليل الفلسفية، والملم بالمذاهب والطرائق الفلسفية ومناهج التفكير والتيارات العقلية، والمشكلات التي خاض فيها الفلاسفة، خصوصاً القضايا الاجتماعية المرتبطة بالذات الإنسانية والشخصية؛ لأن أكثر المشكلات التي تتخبط فيها الإنسانية تأتي من جانب الذات، كالأوهام والشك والغيرة، ... فالفيلسوف المعالج هو من يتمتع بفقته علم الأخلاق، ويمتاز بالقدرة العالية على الحوار، وملم بالحالة العامة للمجتمع.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى ضرورة التمييز بين الفيلسوف المعالج، وبين غيره من المعالجين السيكولوجيين وغيرهم؛ فالأول لا يصرف أدوية علاجية للحالة، وإنما الأمر لديه أشبه ما يكون بعمل تدخلي عقلي وحوار اجتماعي ينشأ بينه والشخص المحاور، والذي يُفترض فيه أن يكون على علم بقواعد الحوار الفلسفي، وعارف بالقضايا الاجتماعية والمشكلات الإنسانية التي تحيط بواقعه، حيث يستطيع التفاعل بجدية مع أسئلة الفيلسوف بصدده تشخيص الحالة أو الوضعية، ليتمكن من تحويلها إلى قضايا قابلة للحل والعلاج، انطلاقاً من تحديد دوافع المشكلة، واستشراق الحل المناسب لها دون الاستعانة بالمتدخل الاخصائي النفسي أو الطبيب.

لذلك، أضحت الفلسفة العلاجية آلية ضرورية في الحياة المعاصرة، وهذا الأسلوب في العلاج أول ما يستهدفه هو تخليص العقل من الأفكار السلبية والمعتقدات الخاطئة، حتى تصبح الفلسفة التطبيقية أسلوب حياة، وأن محاولة العيش ضمن هذا الإطار الأخلاقي (الفضيلة المعرفية) الذي تتأسس عليه، يجعل من قرارات الأفراد أكثر حكمة وعقلانية ومنطقية أثناء مواجهة مشكلاتهم الذاتية والمجتمعية.

بعد هذا العرض المقتضب، المرتبط باستئناف التداخل بين الاجتماعي والفلسفي من مدخل الفلسفة العلاجية، نصل إلى أن الفكرة المنهجية التي نروم تأكيدها، أنه من الخطأ ربط الفلسفة التطبيقية بالأخلاق التطبيقية فقط؛ لأن الفلسفة التطبيقية أكثر اتساعاً من الأخلاق التطبيقية، فالأولى تستوعب الثانية إلى جانب الميتافيزيقا التطبيقية، والفلسفة العلاجية، والإبستمولوجيا التطبيقية، والاستاتيكا التطبيقية.

إذا ظهرت أهمية الفلسفة العلاجية في حل المشكلات الاجتماعية، كيف يمكن إسقاط التفكير الناقد التوليدي السقراطي - بوصفه آلية علاجية يعتمدها الفيلسوف أو المستشار الفلسفي - في حل القضايا والمشكلات الاجتماعية الفردية والجماعية؟

ثانياً: التفكير النقدي ضرورة لعلاج المشكلات الاجتماعية المعاصرة

يوظف الممارسون للفلسفة على المنهج السقراطي آلية التفكير الناقد، إيماناً منهم بأن أي ممارسة فلسفية لا يمكنها أن تخرج عن هذا النمط من التفكير، ثم إن سقراط في محاوراته⁷ كان دائماً يستهدف توضيح وتسويغ الأفكار حتى تجتاز اختبار الفحص النقدي؛ بمعنى أن سقراط يدفع بمحاوره إلى مزيد من التوضيح لتصوراته وكشف افتراضاته الخفية والمعلنة، حتى يستطيع أن يحمله على قبول سيغ منطقية تدعم وجهات نظر الفيلسوف، بناء على رؤية نقدية توليدية واستدلالية عقلي ينطلق من أجوبة المحاور، ليصبح دور التفكير الناقد هو مساعدة المحاور أو طالب المشورة في القيام بعملية فحص نقدي ذاتي لوجهات نظره تجاه مشكلاته والمشكلات الاجتماعية، والكشف عن الافتراضات المسبقة بوصفها حلول، وتحليل هذه المشكلات من منطلق ذاتي ومنطق جواني، مع العمل على تحسين هذا النقد بجعل المشكلات أكثر وضوحاً وسهولة، فالصورة المثالية الناتجة عن هذا الفحص النقدي التوليدي هي التي تجعل من وجهة نظر العارف بمشكلاته وقضاياها متسقة ومستساغة ومستحسنة، حتى تتأسس على أساس متين من الاستدلال العقلي والافتراضات البديهية التي يمكن التسليم بها⁸. فالهدف الأساسي هنا هو تدعيم الفهم الذاتي بحجج وبراهين في سبيل الإمساك بالمعرفة والحقيقة والخير والفضيلة والسعادة والحكمة...

نشير إلى أن سقراط مارس الفلسفة العلاجية، وتتبع البحث عن السعادة البشرية، فوجدها في الحكمة والمعرفة البشرية، ورأى أنها ضرورية من أجل عيش حياة جيدة⁹. لذلك، لم يؤسس سقراط مذهباً، ولم يبن نسقاً فلسفياً متفرداً من حيث التكامل والتوازن، يتميز به عن غيره، لكنه قدم منهجاً فلسفياً جديداً في البحث¹⁰، ينطلق من السؤال النقدي التوليدي ويجعل حضوره قوياً جداً؛ لأنه كان يكثر من طرح الأسئلة، ويصرح بأنه يجهل موضوع المحاور جهلاً تاماً، ويعلن أن الحقيقة دائماً موجودة، والمعرفة ممكنة التحصيل، وعلى الشخص أن يبحث عنها بطرح السؤال النقدي الصحيح.

يبدو أن التفكير الناقد كان ولا يزال موضع اهتمام الفلاسفة قديماً وحديثاً، ويعدّ تيم لوبون Tim Le Bon من أشد المدافعين عن استخدام التفكير النقدي في الفلسفة العلاجية وعملية الاستشارة، فقد ألف كتاباً في هذا الباب سماه: «العلاج الحكيم: فلسفة للمستشارين» ونشره سنة 2007، دمج فيه بين العلاج السلوكي الإدراكي

7 أنظر: «محاورات سقراط»، أحمد فؤاد الأهواني، مكتبة الأسرة للسلسلة: تراث الإنسانية، 1995، «المنهج الذي اعتمده سقراط في محاوراته يتأسس على الحوار، من خلال خلق مناقشة تجري بين شخصين أو أكثر، في صيغة استجواب: سؤال وجواب. وقد استخدم هذا النوع من الحوار السفسطائيون، ليصبح صالحاً للبحث في المشكلات والقضايا الإنسانية، وكان هذا المنهج مستخدماً كذلك في أكاديمية أفلاطون».

8 رضا كمال خلاف، «الفلسفة العلاجية والمشورة الفلسفية»، مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية، ص 579

9 Julian Dutra, "What did Socrates, Plato, and Aristotle Think About Wisdom?", Wisdom In The News, The University of Chicago, Center for Practical Wisdom, 2022

10 يوسف كرم، «تاريخ الفلسفة اليونانية»، هنداوي، القاهرة، ص 6

ومنهج في الاستشارة الفلسفية¹¹. فقد صرح بأن استخدام هذا الأسلوب (التفكير النقدي التوليدي) يساعد طالب المشورة، حيث يدفعه نحو التحلي بالحكمة أثناء اتخاذ القرارات الحكيمة، ويرسخ القيم المستنيرة فيه. فالتفكير الناقد حسب تيم لوبون وهو أكثر المناهج الفلسفية نفعاً، وقيمتها كامنّة في تعزيز عقلانية طالب المشورة في اتخاذ القرارات العاطفية والاعتقادات والقيم¹².

من جهته، يؤكد برتراند راسل أن الغالبية العظمى من الناس أثناء ممارستهم لشؤونهم اليومية لا يمارسون أشكال التأمل والنقد الفلسفي الذاتي والمجتمعي. فالتفكير الناقد من منظور راسل، هنا، يعكس رؤية أخلاقية وإبستمولوجية للحياة والذات الإنسانية، وإن كان منظماً تنظيماً ذاتياً؛ بمعنى أنه تفكير يقضي على المركزية الذاتية في مرحلة أولى، ثم على المركزية الاجتماعية في مرحلة لاحقة¹³.

أما جون ستوارت مل، فقد أشار في مقدمة مؤلفه عن الحرية: أن الخطر الكبير الذي يهدد الإنسانية يتمثل في انحسار التفكير الناقد أمام هيمنة واستبداد التقليد والعادة. فقد وقف ستوارت مل أمام كل محاولة تقلل من أهمية التفكير الفلسفي الناقد، بل يؤكد أن تعطيل هذا الأسلوب سينعكس سلباً على قيم المجتمعات وثقافات الشعوب.

يمكن القول، أن الفلسفة السقراطية المتأسسة على النقد التوليدي، تقدم لنا الإطار التصوري للتطور الصوري للمحاورة، التي صيغت فيها التساؤلات المرتبطة بالمشكلة الاجتماعية، على الشكل الذي يستهدف الوصول إلى عمق وأصل أسباب ودوافع هذه المشكلات والقضايا، حتى وإن كانت عبارة عن تصورات خادعة أو كاذبة، أو ليست عليها دلائل وحجج واقعية، أو قد تكون تكونت لدى المحاور عن ذاته وعن مجتمعه، حيث تمنعه من تحقيق أهدافه، وبالتالي إعطاء معنى لحياته وحياته مجتمعه.

إذا كان هذا التفكير النقدي التوليدي، عموماً، يتأسس على وجود ثلاثة أركان أساسية: الفيلسوف، المحاور ثم المشكلة، فبتفاعل هذه الأركان، تستحيل المحاورة إلى عملية مواجهة باستدلال جدلي دياكتيكي، انطلاقاً من التأمل والنظر في المشكلات الاجتماعية الجماعية والفردية. بهذا المعنى، يستطيع الفيلسوف المعالج أن يساعد الناس على أن يحيوا حياة سعيدة وذات معنى. فالبحث الفلسفي وفق آلية التفكير النقدي السقراطي، لا يتعدى في النهاية مستوى الممارسة العادية للتأمل والتفكير والنقد العميق، والحوار التهكمي أحياناً والتوليدي أحياناً أخرى، تفكيراً يتغيا إعطاء معنى للإنسان وقيمه وأحكامه وأهدافه ومعتقداته ورغباته وعواطفه والتزاماته وعلاقاته¹⁴. وعلى هذا كانت قولة سقراط «اعرف نفسك بنفسك» حكمة خالدة، وإن الذي يجهل نفسه يجهل الخير والفضائل.

11 ورد عند رضا كمال خلاف، «الفلسفة العلاجية والمشورة الفلسفية»، مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية، ص 568

12 Tim Le Bon, "Wise Therapy: Philosophy for Counselors" London Continuum, 2007, P 3

13 Bertrand Russell, "History of Western philosophy", London: Allen end Unwin, 1948, P 6

14 Walsh R,D, »philosophical Counselling Practicce«. (Janus Head, 8 (2),2005 p.497-508

وتفعيلاً لهذا الأسلوب النقدي، يرى كريمز Grimes أن توجيه الأسئلة يجعل المحاور يتخطى حدود العواطف والانفعالات، لخوض غمار تحليل أكثر عمقا؛ إذ يمكن بهذه الصيغة التعامل بفعالية مع الوضعيات والمشكلات الاجتماعية، بالانفتاح على نمط جديد من التفكير المتمركز حول الذات المفكرة، وهو ما يطلق عليه بـ«الكشف الذاتي» بإعادة تأييث صورة المحاور بمعتقدات وتصورات تستهدف إعادة تقييم أهداف حياته وغاياته¹⁵ ومن معنى للحياة.

يبدو أن الدعوة إلى تبني التفكير النقدي السقراطي كمدخل للفلسفة العلاجية في تزايد مستمر سنة بعد أخرى، خصوصا في البلدان المتقدمة التي لها حضاها من مناهج البحث الفلسفية، على اعتبار أن الاستشارة الفلسفية أو الفلسفة العلاجية طرح حديث وجديد، يسعى إلى تجويد حياة الفرد والجماعة. فكيف يتم العلاج بالفلسفة والاستشارة الفلسفية؟ وما مدى تقبل هذا النمط من العلاج من طرف طالب الاستشارة؟ وهل طالب الاستشارة هذا مريض يحتاج إلى عيادة الفيلسوف؟ وهل هناك عيادات متخصصة في العلاج بالفلسفة؟

ثالثا: مشكلات الذات الفردية وشروط تدخل الفلسفة العلاجية

من خلال إلقاء نظرة فاحصة على التاريخ الإنساني، يتضح أن هناك دائما حاجة ملحة إلى الاستعانة بأفكار الفلاسفة وآلية التفكير الناقد، وقد ظهرت الاستشارات الفلسفية في بدايتها مع الحكام الذين استعانوا في اتخاذ قراراتهم الصعبة والمصيرية بالفكر الفلسفي، فأفلاطون قدم النصح إلى ملك سرقسطة «ديونسيوس»، كما كان رينيه ديكرت مستشارا لملكة السويد «كريستين»، واشتغل جون لوك كمستشار «لإيرل مسافسبوي»¹⁶؛ بمعنى أن الاستشارة الفلسفية كانت دوما حاضرة، خصوصا في الأوساط السياسية ولدى الحكام. أما في العقود الأخيرة، فقد توسعت دائرة الاستشارة وتقديم النصح لتشمل عامة الناس، بعد أن اكتشفوا القيمة العملية للفلسفة العلاجية كأداة موجهة ومرشدة في جميع مناحي شؤون الحياة الإنسانية.

لذا، الفلسفة العلاجية هي نوع من الاستشارة يستخدم الأفكار والاستبصارات الفلسفية لمساعدة الناس على التفكير السليم، وهذه المشورة تتجلى فائدتها في مساعدة أصحاب القرار وعامة الناس في معرفة وضعياتهم، بهدف اتخاذ القرارات الصعبة وحل المعضلات، ومساعدتهم في الفهم الواضح لما يستهدفونه من الحياة¹⁷.

15 Pierre Grimes.: "A study of philosophical midwifery": <https://www.noeticsociety.org/a-study-of-philosophical-midwifery-presented-at-3rd-intl-conference-on-pc-nyc-1997/>

16 Pierre Hadot: «philosophy as a way of life Spiritual Exercises from Socrates to Foucault» (Oxford, Black weal, 1995). Pp.82, 102

Sellers (John) The Art of Living, «The Stoics on the Nature and Function of philosophy» (Bristol Classical, London, 2009) P. 126-127

17 Achenbach, G. B: «philosophy, philosophical practice, and Psychotherapy». In R. Lahav & M.V. Tillmanns (eds) «Essays on philosophical Counseling». Lahav, Maryland. University Press of America (1995) pp.61-74 ورد عند رضا كمال خلاف، «الفلسفة العلاجية والمشورة الفلسفية»، مرجع سابق، ص 547

وعند إعمال التفكير النقدي السقراطي في هذا النمط من العلاج، نجد الفيلسوف المعالج ينطلق من مجموعة من الأسئلة التي صممت بشكل محكم لكشف اضطرابات وأخطاء المحاور، سواء في أسلوب تفكيره أو نمط حياته، وهو أسلوب يستكشف من خلاله الفيلسوف، أولاً، القضايا الاجتماعية الأساسية التي تتولد عنها المشكلات التي يواجهها المحاور، ثم يسعى ليقنع هذا الأخير أن الفلسفة العلاجية هي حقيقة لا تشير بتاتا إلى وجود مرض ذهني أو عقلي، بقدر ما هي إلا وسيلة تُعري طبيعة المعاناة والآلام التي يعيشها هذا الشخص خلال حياته اليومية، مع العمل على التخفيف منها أو تجاوزها. تمثل لذلك بالآلام الناتجة عن الكوارث الطبيعية والجرائم والحروب والحوادث والأمراض والفناء، وانعكاساتها على نفسية الإنسان الذي يفقد معنى الحياة والقدرة على تحقيق أهدافه الحيوية.

وفي هذا الصدد يمكن أن نتساءل، هل الحفاظ على الصحة باستخدام أسلوب العلاج الفلسفي القائم على التفكير الناقد يعدّ مبرراً مقنعاً لضرورة الاعتماد على الفلسفة العلاجية؟ الجواب عن هذا السؤال يمكن أن نستشفه من خلاصة محاورتي الدفاع وفايدروس لأفلاطون، خصوصا عندما تمثل سقراط معضلة الموت، حيث برهن بكل قوة على خلود النفس بعد أن تجرع السم، ليصبح الموت من وجهة نظره علاجاً وشفاء للنفس العليلية، بتخليصها من سجن الجسد بعد الموت¹⁸، بالنسبة إلى سقراط هنا العلاج الفلسفي يهتم بالروح وما بعدها.

بتعبير آخر، إن الفلسفة العلاجية لا تهتم مكونات النفس فقط، من خلال ضبطها والتحكم في انفعالاتها، وإنما تعمل، على تحقيق انفتاح الذهن بتجاوز رغبات النفس. لذا، فهي وسيلة تساعد على مواجهة تقلبات الحياة وتحولات القدر ومعضلة الموت، من خلال تعزيز البحث العقلائي القائم على التفكير الناقد في الأهداف والغايات. فالفحص وفق النقد السقراطي يمكن أن يؤدي إلى التبصر العميق أثناء معالجة المشكلات الاجتماعية الصعبة، وبالتالي يصبح دور الفلسفة العلاجية ليس مساعدة الآخر في أن يكون أكثر سعادة، وإنما في أن يكون أكثر حكمة. فالفلسفة العلاجية بهذا المعنى، هي طريق إلى الحياة الحكيمة، ونجد الرواقيين والأبيقوريين قد استخدموا التفكير الفلسفي وسيلة علاجية للحد من الاضطرابات العاطفية والانفعالية، وتحصيل السكينة والهدوء والاستقرار الداخلي، على اعتبار أن الحياة الطيبة هي نتيجة للحياة الحكيمة، ونفس الشيء نجده في دفاع نيتشه عن الأهداف الحيوية، فجهوده العلاجية موجهة للدفاع عن هذه الأهداف¹⁹.

هذا النموذج النقدي في الفلسفة ليس علاجاً بمعنى الشفاء من المرض الذهني أو العقلي، وإنما هو نموذج يستهدف تحسين شروط الحياة بالقضاء على الضيق والألم والاستياء، التي يتم تشخيصها بشكل خاطئ على أنها مشكلات سيكولوجية. من تم على الناس أن يعرفوا أنفسهم معرفة فلسفية، لكي يستطيعوا المحافظة على صحتهم العقلية والبدنية، واستقرارهم العاطفي والوجداني، وفهم القوى التي تؤثر في الإنسان وفي محيطه.

18 رضا كمال خلاف، «الفلسفة العلاجية والمشورة الفلسفية»، مرجع سابق، ص 549

19 Keith Ansell, "for Mortal Souls: Philosophy and Therape in Nietzsche Dawn", in "Philosophy as Therapeia", Royal institute of philosophy, Vol.66: PP 137-164

إذا كان الفيلسوف المعالج يرفض فكرة وصف محاوره بأنه يعاني من مرض عقلي، ولديه خلل وظيفي ما، فإنه يتعامل معه من مبدأ الشريك والند، فيتساوى الاثنان في حوار نقدي توليدي، يصلان من خلاله إلى استنتاج حلول منطقية للمشكلات والقضايا الاجتماعية.

أما في العقود الأخيرة، فقد ظهرت مدارس وعيادات سهرت على تقديم فلسفة علاجية نفسية واجتماعية لمريديها. فيما يشبه الطبيب المعالج، اشتهر الفيلسوف بيتر براندو رايب Peter B. Raabe، بممارسة المشورة الفلسفية والفلسفة العلاجية للعملاء الذين يمكنهم الخضوع لمعايير تشخيص الطب النفسي، حيث يصر دائماً على أن تكون للفلسفة العلاجية أهدافاً علاجية، انطلاقاً من فهم معاناة الإنسان، ثم ابتكار الحلول للتخفيف من حدة هذه المعاناة.

ونظراً لأهمية الفلسفة العلاجية والاستشارة الفلسفية، فقد تم تأسيس العديد من الجمعيات والمؤسسات التي تقدم المشورة للناس، فقد أسس بيير جريمي Pierre Grime سنة 1967 جمعية أطلق عليها «الجمعية الإدراكية» تهتم بدراسة الحوار والجدل بين الفيلسوف والطرف الآخر، كما قام بدمج العلاج السيكولوجي بالفلسفة على أسلوب سقراطي النقدي التوليدي في محاورة تيماسوس، حيث استعار منه مبدأ تنصيب نفسه ذات مساعدة للناس الذين تكون عقولهم محملة بأفكار قد تكون صادقة أو كاذبة²⁰.

أما أقدم مؤسسة للاستشارات والعلاج بالفلسفة، فقد ظهرت في ألمانيا سنة 1982 أطلق عليها جيرد أشنباخ Gerd Achenbach «الجمعية الألمانية للممارسة الفلسفية والمشورة». وفي الولايات المتحدة الأمريكية أسس كل من Paul Sharkney, Elliot D.Cohen, Thomas Magnell جمعية تحمل اسم: «الجمعية الأمريكية للاستشارة الفلسفية» سنة 1992، تقدم شهادة في العلاج القائم على المنطق، عن طريق «معهد التفكير النقدي». كما أسس ليو مارينوف سنة 1998 بالولايات المتحدة «الجمعية الأمريكية للممارسة الفلسفية»، «The American philosophical practitioner's Association»، تقدم برنامجاً في كيفية مشورة العملاء لمن حصل على شهادة متقدمة في الفلسفة²¹.

وبالموازاة مع ذلك، عكف العديد من الفلاسفة على تأليف كتب تعنى بالفلسفة العلاجية، وتقدم نماذج يمكنها أن تساعد في حل المعضلات والمشاكل الاجتماعية الجماعية والفردية، من أهمها: «التساؤلات الكبرى: كيف تغير الفلسفة حياتك؟» للفيلسوف الكبير ليو مارينوف Lou Marinoff، وكتاب «العلاج بالفلسفة» من تأليف مصطفى النشار، وكتاب «إعادة الإعمار في الفلسفة» لجون ديوي John Dewey، وكتاب «مفهوم السعادة» لراسل...

20 Peter Raabe Brune: »philosophy of philosophical counseling«, The University of British Columbia, 1999, P 49-91

يمكن القول إن هذا الفرع التخصصي في الفلسفة، الآن، أصبحت له عيادات استشارية منتشرة في كثير من البلدان الغربية، فيها يتم تأطير وظيفة «مستشار فلسفي» بإطار يضمن حل المشكلات والقضايا الاجتماعية، خصوصا داخل المؤسسات الرسمية والتنظيمات المهنية، لرفع همم الموظفين وتجويد أدائهم، والارتقاء بهذه المؤسسات وأفرادها.

نشير إلى أن أنصار هذا التخصص الفلسفي لم يكتفوا بالمطالبة بمأسسة وتقنين الفلسفة العلاجية، بل امتدت دعواتهم إلى ضرورة اكتساب طلبة الكليات العلمية: الطب والهندسة، والعلوم الإنسانية والاجتماعية الكفايات اللازمة في مجال الاستشارة الفلسفية، بالنظر لما يعانيه خريجها من ضعف في مهارات التواصل والتعامل مع العملاء والمرضى، والاستفادة من أساليب وأليات الفلسفة العلاجية القائمة على التفكير الناقد في مواجهة المشكلات الاجتماعية والثقافية، والانفعالات النفسية للأفراد.

خاتمة

إذا كانت أعظم هبة منحتها الحضارة اليونانية القديمة للإنسانية هي التفكير الفلسفي، حيث كانت الفلسفة عبارة عن أداة عقلية قادرة على هدم وإعادة بناء حياة الفرد والجماعة انطلاقاً من طرح السؤال الصحيح، فقد سعت، عبر مباحثها الكبرى، إلى تخليص العقل من الميتافيزيقا والخيال، والحقيقة من الخطأ والوهم، وساعدت على نشر الخير والفضيلة باتخاذ القرارات الحكيمة والرصينة المتأسسة على السؤال النقدي التوليدي. يمكن أن نتلمس هذه الفضائل الأخلاقية لدى أغلب الفلاسفة، منذ العصر اليوناني إلى اليوم.

عموماً، هناك مجموعة من الخطوات المنهجية الموجهة التي بإمكانها أن تضع الفيلسوف المعالج على الطريق الصحيح، وهي كما يعرضها رضا كمال خلاف، نختصرها في النقاط التالية:

1- تعريف المشكلة بطرح سلسلة من الأسئلة: لمن ولماذا حدثت المشكلة؟ أين ومتى وكيف حدثت المشكلة؟

2- البحث عن أسباب وعلل تكون بمثابة احتمالات لوقوع المشكلة

3- البحث عن بدائل لصياغة منهج لحل المشكلة.

4- استخلاص مجموعة من الحلول الممكنة لاختيار الأفضل من بينها؟

5- تنفيذ الحل المناسب الذي وقع عليه الاختيار؟

6- تقييم النتيجة بعد تنفيذ الحل.

ومن خلال التقييد الخطي بهذه الخطاظة المنهجية، يمكن للتفكير الفلسفي النقدي أن يصبح أداة علاجية، انطلاقاً من النقاش والجدل الديالكتيكي الصادق، القائم بين الفيلسوف وطالب العلاج حول العواطف والمضمرات، وطريقة عيش الحياة، وأسلوب حل مشكلات الحياة الواقعية والقضايا المعاصرة.

إذا كان الذكاء الاصطناعي التوليدي، اليوم، ينتج الغباء والكسل ويعطل التفكير النقدي، كما أشارت إلى ذلك دراسة علمية قامت بها مؤسسة مايكروسوفت، فإنه يمكن الجزم أن أعمال التفكير النقدي السقراطي الذي يعد أساس الفلسفة العلاجية، قادر على مساعدة الإنسان في حل المشكلات واتخاذ القرارات الصعبة، على اعتبار أن معظم ما يقوم به هذا الإنسان في الحياة هو السعي إلى حل مشكلاته واتخاذ قراراته وفق استراتيجيات يرى أنها صائبة، بالرغم من خضوعه تحت عاملي الضغط والزمن (القليل من الوقت والكثير من

الضغط)، لذلك، يبدو من اللازم العودة إلى استخدام منهج «التفكير النقدي السقراطي» أثناء مواجهة مختلف المشكلات والقضايا لاتخاذ القرارات الصائبة.

أما ولكي يصبح الإنسان سليماً أخلاقياً حسب المنظور الفلسفي التطبيقي (الفلسفة العلاجية)، وبناء على التفكير النقدي التوليدي، فإنه ملزم بتدعيم قوى الخير وتوسيع حدودها في العقل، وتقليص قوى الشر والرذيلة، والنزول بها منزلة دنيا في النفس، حتى يتحول هذا الإنسان إلى عنصر خير صالح ومصلح للمجتمع، هذا العمل إذا استطاع كل إنسان تنفيذه سيتم القضاء على كل مسببات الصراع والتناحر والقتل والسلب والاعتداء داخل المجتمعات والأمم.

لائحة المراجع

باللغة اللاتينية

- Achenbach Gerd, »Philosophy, Philosophical Practice, and Psychotherapy«. In R. Lahav & M.V. Tillmamns (eds), »Essays on philosophical Counseling«. Lahav, Maryland. University Press of America, 1995
- Bertrand Russell, »History of Western philosophy«, London: Allen end Unwin, 1948
- Devid Coady, »Applied Epistemology in A Companion to Applied Philosophy«,
- Julian Dutra, »What did Socrates, Plato, and Aristotle Think About Wisdom?« Wisdom In The News, The University of Chicago, Center for Practical Wisdom, 2022
- Kasper Lippert–Rasmussen, “The Nature of Applied Philosophy”.
- Keith Ansell, »for Mortal Souls: Philosophy and Therape in Nietzsche Dawn«, in »Philosophy as Therapeia«, Royal institute of philosophy, Vol.66
- Lipman Matthew, »Thinking in Education«, Cambridge University Press, 2003
- Monica Vilhauer, »Philosophical Counseling«, a Journal for Philosophy and Interdisciplinary Research, 16, 2005
- Pierre (Hadot): »philosophy as a way of life Spiritual Exercises from Socrates to Foucault«, Oxford, Black weal, 1995
- Peter Raabe Brune, »philosophy of philosophical counseling«, The University of British Columbia, 1999
- Pierre Grimes, »A study of philosophical midwifery«, <https://www.noeticsociety.org/a-study-of-philosophical-midwifery-presented-at-3rd-intl-conference-on-pc-nyc-1997/>
- Sellars (John) The Art of Living, »The Stoics on the Nature and Function of philosophy,« Bristol Classical, London, 2009
- Tim Le Bon, »Wise Therapy: Philosophy for Counselors« London Continuum, 2007
- Walsh R,D. »philosophical Counselling Practice«, Janus Head, 8 (2),2005 .

باللغة العربية

- أحمد فؤاد الأهواني، «محاورات سقراط»، مكتبة الأسرة، سلسلة تراث الإنسانية، القاهرة، الهيئة المصرية المصرية العامة للكتاب، 1995
- أحمد حجازي، «فلسفة التغيير، مفاهيم وقيم جديدة لعصر حديث»، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، يناير 2014

- رضا كمال خلاف، «الفلسفة العلاجية والمشورة الفلسفية»، مجلة وادي النيل للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية والتربوية، يوليو 2021
- يحيى عطوة الزنط، «فلسفة التغيير، أين أنت في عالم لا يكف عن التغيير؟»، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 2021
- يوسف كرم، «تاريخ الفلسفة اليونانية»، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2014
- يورغن هابرماس، «القول الفلسفي للحدثة» ترجمة فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الجمهورية العربية السورية، 1995

 Mominoun

 MominounWithoutBorders

 @ Mominoun_sm

info@mominoun.com

www.mominoun.com

مُهْمِنُون بِلا حدود

Mominoun Without 3orders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

